محمود تيمور

معبود من طين

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ١١٢٣٧٧
المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

الطبعة الأولى

سنة ١٩٦٩

١

إن من يتحدث إليك فى هذه القراطيس التى بين يديك ، ليس من البشر ... إنه إله ... إله عظيم الحول والطول ، أقاموا باسمه معبداً ضخما ، ونصبوا فيه تمثالا له ضخماً ، وعكفوا عليه ، يعبدونه ويتزلفون إليه .

إنى إله . . . إله فى أعين الناس ، أما أنا فى حقيقة نفسى ، فواحد من البشر ... إنسان مثلك ، لا امتياز له عليك .

لقد رأيت الدين تعبث به الخرافات والأوهام ، فأردت هداية هذا النفر المضلل ، وتبصيره بجوهر الدين : الصدق والإخلاص ، والمحبة والسلام ... فثاروا بى ، وكادوا لى ، وائتمروا ليقتلونى ... بيد أنهم فى النهاية ألهونى !...

صار لى معبد مهيب ، تحج إليه أفواج المؤمنين ، وصنم طويل عريض ، يركع أمامه جموع الاتباع والمريدين ...

كذلك أرادوا ، وليس لى فيما أرادوه يد أو صنيع ...

دعنى أقص عليك نبئى ، ثم احكم بما شئت لى أو علىّ ،

ولتكن فى حكمك أخا كرم وسماح ، فالإله الذى تقاضيه له نزواته وشهواته ، مهما يتبوأ عرش الاقداس !.

أنا « بتاح » من مدينة « أنب — حز » الخالدة ، ذات الأبواب السبعة ، والأسوار الناصعة البياض ، سيدة المدائن فى العالم المنظور .

كان أبى من أفذاذ الدولة ، أمينا على خزائن « فرعون » الأكبر ، مهيمنا على ثروة البلاد .

فلما انتهت رحلته فى عالم المنظور ، من دنياك هذه «

وانتقل إلى العالم غـــير المنظور ، عالم الزرقة الصافية ، عرض «فرعون» عليّ أن أقوم مقام أبى ، وأتابع سيرته ، وكنت فى قمة الرجولة ، أعنى فى تمام الأربعين ، فلم أستطع أن أستجيب له ، واعتذرت شاكراً إياه على ما حبانى به من ثقة وتقدير ، وصارحته بأنى لست الرجل الذى يطمئن هو إلى التعويل عليه فى هذا المهم الجسيم .

نشأت فتى أميل إلى المثالية ، لا طاقة لى باحتمال الواقع الكريه الذى يحيط بى ، ذلك الواقع القـــائم على زيف وخدعة ، وعلى تنكر للحقائق الباقية .

وكان مما أيقظ ضميرى ، وأرهف وجدانى ، ما شهدته من مناظر أليمة حولى ، فى أثناء رحلاتى مع أبى ، نجوب الأقاليم لجمع الإتاوات وتسخير العبيد .

وكنت أعجب لهؤلاء الكهنة ، سدنة الدين ، من نصبوا أنفسهم للدفاع عن حقوق المظلومين ، وتذكير الناس بالخصائص الدينية من سماحة وعدالة وبر ... لقد استحالوا سادة غطاريف ، يضللون العقول ، ويموهون الحقائق ، وينشرون بين الناس عقيدة الخضوع والاستسلام ...

وكانت لى زوجة محبة وفية ، عشت معها أعواماً ، ثم رحلت إلى العالم غير المنظور ، فأقسمت أن أكون حفياً بذكراها ما حييت ، وأقبلت على دراساتى وتأملاتى أوليها أطيب وقتى ، وألزمت نفسى أن أقضى طوال الساعات فى مناجيات وصلوات ...

لقد انكببت على قراطيس الحكمة أعب منها عباً ، وأضربت عن شواغل الحياة وملاهيها ، فلم أعد ألتى

« للمرأة » بالا ، ولم أجعل لفتنتها إلى قلبي سبيلا . أما ضرورات العيش ، فاقتصرت منها على ما يقيم الأود ، ويستر البدن ، ويقى من وطأة البرد ووقدة الحر ...

مالى ولرغبات الجسد ؟ ... إنى أعمل على السمو بنفسى فوق الغرائز والنزعات ... وألفيتنى على مر الأيام قد تحررت من عبودية المطالب الدنيوية ، إلى مدى بعيد ، وأحسست أنى قد أصبحت سيد نفسى ، بيدى زمامها ، أوجهها نحو المثل العليا .

لقد طهرت كيانى ، واستطعت فى ضوء هذه الطهارة أن أرى الأمور على حقيقتها ، ببصيرة نيرة ، لا كما يراها الآخرون الخاضعون لمشاعر منحرفة .

كم اقتضتنى هذه الدرجة التى نلتها من الطهارة أن أمارس

رياضة عنيفة موصولة . وكم أحسست الراحة حين بلغت ذلك الشأو البعيد ، وتذوقت حينئذ معنى الزعامة الدينية الحقة ، والسيادة الروحية العظمى .

بهذا كنت صاحب رسالة يلزمنى أداؤها لمعشرى ...

وشرعت أبثّ بين أهل الرأى ما استبان لى من سرائر الطبيعة وحقائق الوجود ، وما ينبغى أن تقوم عليه علائق النــــاس بينهم وبين أنفسهم ، وبينهم وبين الإله الحق ، قور الأزل ...

ونشبت بينى وبين أهل الرأى مجادلات حامية الوطيس ، انتهت بأن أثاروا حولى ضجة عارمة ، قوامها الأثرة والحقد ، ورمونى بالخروج على الناموس ، وبالمروق عن موروث العقائد والتقاليد ...

وناصبنى « بهاتور » رئيس الكهنة العداء ، وكان جباراً طاغية ، يتخذ من سلطانه الدينى مطية لمآربه ، ويلتمس به إرواء جشعه ...

والتف حولى شيعة أمناء ، ما لبثوا أن نموا وتكاثروا ، وتميز من بينهم شاب متوقد الذهن ، قـوى العزم ، فيه تطلع وطماح ، يسمى « سنكرع » ...

وكان « بهاتور » !! بالمرصاد ، يرقب حركاتنا وسكناتنا ، ويتعقبنا فى كل مكان ، محاولا أن يشتت شملنا ، ويقضى على ديننا ، ليخلو له الجو ، ويبقى له السلطان ...

وفى أمسية حالكة الظلمة ، وبينما كنا فى مخبئنا مجتمعين للتشاور والصلاة ، فجأتنا جموع كثيفة من جنود « بهاتور » ، واحتدمت على الفور بيننا وبينهم معركة شعواء ،

ما أسرع أن استحالت إلى مذبحة نكراء ...

وشات أشهد الأحداث الدائرة حيالى فى خبل وذهول ، وحاولت وقف القتال فأخفقت ... فما كانت نفسى تسوّغ لى أن أشهد قتل الإنسان لأخيه الإنسان ، ولا أن أغمس يدى فى دم إخوان من بنى البشر ...

وطار صوابى لمرأى الدماء وهى تُراق كالأنهار ، والأشلاء وهى تتطاير فى الهواء ، وأصابتنى لوثة من هول الفاجعة ، وألفيتنى أهيم على وجهى ، لا أعلم لى وجهة سير ...

كنت قد فقدت إحساسى بنفسى ، وإدراكى لما حولى ...

... ولما ثاب إلىّ رشدى ، واستجمعت ذاكرتى ، تبين لى أنى قطعت شوطا بعيداً عن البلدة ، وأنى أضرب به

فى الصحراء ناحية الغرب ، بعد أن عبرت النهر العظيم ... حدث ذلك كله دون وعى منى ...

ووجدتنى عن كثب من مغارة ، فقصدت إليها أحتمى بها .. وطفقت جاهداً أستوضح ما مرّ بى ...

وانسرح بى الخاطر يهيم متخبطاً فى آفاق الظنون والاحتمالات والأوهام : أنجا من أتباعنا أحد ؟ .. أنجح « بهاتور » فى القضاء علينا قضاء مبرما ؟... لا ، لن يكون ذلك له . إن الإله الحق نور الأزل لأرحم وأبر من أن يطفىء تلك الشعلة الوهاجة التى ألهمنى إياها ... لن يندثر ديننا ما دام فى بدنى عرق ينبض ...

كانت إرادة الإله الأعظم أن أنجو ببدنى ، وأن تتصل حياتى ، لأحمل الأمانة ، وأبلغها كاملة إلى البشر . لقيد

أدركت الآن لم كتبت لى النجاة ، فسلمت من هـول المذبحـة !...

وتمنيت أن تكون النجاة قد كتبت كذلك لصديق الصفى وحوارىّ الأمين « سنكرع » عسى أن يحتفظ بما تركته من تعاليم ، وأن يحمى العقيدة الجديدة من أن تندثر ...

* * *

ماذا أنا صانع الآن ؟...

أمن الحصافة والحكمة أن أعود إلى « أنب — حز » ؟...

لا ، لا عودة لى على الفور !...

ليظفرن بى « بهاتور » لا محالة إن عدت ، وليقضين على شر قضاء ، وفى ذلك القضاء على الدين الجديد ...

الحيلة أن أستخفى عن العيون بعض وقت ، أرقب الأحداث ، وأتابع ما تتمخض عنه الأيام ...

ولعلى مستطيع ، إذ نجوت ببدنى ، أن أستجمع لعودة أواصل فيها جهادى ، ما بقى بين جنبى ذماء الحياة !...

٢

انحدرت فى مسيرى صوب الغـرب ، متجنبا المناطق العامرة ، ولم تـكن لى وجهة سير ، بل كانت رغبتى الأولى الابتعاد عن مواطن الخطر ، والاستخفاء فى جانب مأمون ردحا من الدهر ، حتى إذا حانت الفرصة رجعت أعاود النضال .

كنت وقتئذ فى الخمسين من عمرى ، وبين جنبى همة ، وفى العمر بقية لبلوغ الأمل المنشود ...

وفى جوف الصحراء النـائية ، عثرت اتفاقا على ناسك متعبد ، أبيض اللحية ، فوق الثمـانين ، نذر نفسه للعبادة الخالصة ، يدعى « كاى » ، مسكنه مغارة ، لا يعايشـه فيها إلا حفيدة ابنته ، وهى كل ما بقى له من أهله وعشيرته :

طفلة فطيم ، اسمها « نفرت » . . .

وكان هذا الشيخ الناسك قد اعتصم فى مغارته إثر محنة شديدة حاقت به فى دنيا البشر ، فحمل تلك الحفيدة معه ، ولما تكن قد جاوزت سن الرضاعة ، فأولاها من رعايته وتعهده ما توليه أم رءوم ...

عاش هذا الجد مع صبيته على هامش الحياة ، يتأمل فى تعمق ، واستطاع أن يهتدى إلى حقائق من جوهر التدين ، وأسرار الكون ، فأنكر عبادة الأصنام ، وجنح إلى عبادة الإله الحق نور الأزل ، يستلهم منه الرشد ، ويضرع إليه أن يرفع عن الأرض ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ....

ما إن لقيت هذا الناسك المعتزل ، ودار بيننا الحديث فى كنه الأشياء ، حتى توافقت آراؤنا ، واتحدت مرامينا ،

وسرعان ما توثقت بيني وبينه ألفة ومحبة ، فحططت رحالي عنده ، وأزمعت المقام لديه ...

كانت البقعة التي يسكنها بعيدة عن العمران ، وسط رمال الصحراء ، إلا أنها لم تكن موحشة كل الوحشة ، فقد كان فيها نبع صغير ينبثق من بين الصخور ، يفيض بمائه أحيانا ، وحوله نخيلات متناثرة ، وكانت منطقة النبع صالحة لزراعة الشعير ...

اتخذ الشيخ « كاى » مقامه فى المغارة ، على مقربة من النبع ، وجعل من ذلك المكان القصى منسكا لطيفا صالحاً لحياته هو وصبيته الوسيمة ...

وقد أطلقنا على تلك البقعة اسم « الواحة الخضراء » ، وطاب لى العيش فيها ، أمارس مع القديس « كاى » شعائر

التعبد ، وأطارحه فى الحين بعد الحين الحديث فى جوهر الحقيقة ، محاولين أن نخط للبشر عالما أفضل من عالمه المملوء بالشرور والأكدار ، عالما تحوطه السعادة والأمن والسلام .

وفى الأماسى المقمرة كنا نجلس بباب الكهف ، يطبق علينا الصمت طوراً ، ونتناقل المسامرات الفلسفية أطوارا ، والصبية فى حضن جدها الأكبر ، تستمع إلى الحديث ، بادىء بدء ، ثم يستبد بها النعاس ، والجد يلفها بذراعيه فى رفق وحنان ...

وكنت أخص الصغيرة ببعض وقتى ، ألاعبها وأعابثها ، نتقاذف بكرات أصطنعها من الأعشاب وسعف النخل ، أو نتجارى فى لعبة الاستخفاء ، فتتواثب أمامى فى نشطة الظبى ، وتتصايح تصايح العصفور ، ثم تندفع على صدرى مبهورة الأنفاس ، موردة الخدين . وطالما سويت لها دمى

فى نماذج شتى من بشر وطير وحيوان ، ثم أخترع لهذه الدمى قصصا وسيراً وأفاكيه ، أرويها لها فى تبسط ، فتصغى لى الصبية فى بشر وتشوف ... وهكذا أنست بى ، وركنت إلىّ ، واتخذت منى أباً رحيما ، وعشيراً ودوداً .

وتواردت أعـــوام ، وثقلت الشيخوخة على الناسك « كاى » . أما الصبية « نفرت » فقد شب شبابها ، فازدهرت ونضجت ، كزهرة الصحراء ، نقية طاهرة ، فيها صدق وإخلاص ووفاء .

وكثيراً ما كنت أرقبها ، وأنا مغمور بموجة من سعادة فياضة ، ثم لا ألبث أن أستشعر الإشفاق عليها ... يا للقدر الذى تركها تحيا فى ذلك المنفى السحيق ، منقطعة عن الدنيا ، وهى الوسيمة التى لم تخلق إلا لكى تستمتع بشبابها ونضارتها ، وبمباهج الحياة حواليها . بيد أنى أسارع فأنحى باللائمة على

نفسى ، لسوء تفكيرى : أية حياة أخرى أنشدها لها فى دنيا الشرور والأكدار ؟ أليس خيرا لها أن تغدو حوارية لهذا الشيخ المبارك ، ترتوى من حكمته ، وتقبس من نور إيمانه ، وتنمو فى الرحاب الفساح ، تصـــل روحها بروح الحق السرمدى ؟

وكانت قوافل هينة للتجارة تعبر بنا فى فترات متباعدة ، فتمكث بيننا مهلة استجمام ، وتستق من النبع الصغير ، وتوافينا بقليل من الزاد ، التماسا لبركة الشيخ « كاى » ، وثقة بأن نفحة رضاه خليقة أن تكفل نجاح السعى وأمن الطريق !

وكنا نتلقط من هـذه القوافل العابرة نثارا من أنباء الدنيا البعيدة التى تركناها وراءنا ، فعلمت أن دينا جديدا شرع يبسط نفوذه ، وأخذ الناس يدينون به ، وأن امرءاً

يدعى « سنكرع » قد غدا كاهن هذا الدين ، يبشر به ، ويدعو إليه ...

أحقاً ؟... أهذا هو « سنكرع » رفيق وحواريّ الذى خلفته يوم فارقت قومى ، وأنا فى نظرهم هالك أو فى حكم الهالكين ؟

٣

وتعاقبت فصـــول ، وعلمت أن الدين الجديد يزداد انتشاراً ، وكنت قد أمضيت فى صحبة القديس « كاى » نحو خمسة عشر فيضانا ... ومرة أنبأتنى إحدى القوافل أن « نيناو » الأمير الجديد قد اعتنق دين « بتاح » ، وأن « سنكرع » قد غدا الكاهن الأكبر فى ربوع البلاد ...

وهرعت أبحث عن « كاى » لأزف إليـــه البشرى ، وأقول له : لقد حان أن نخرج من عزلتنا ، ونعود إلى مجتمع الأحياء ، نواصل الكفاح فى سبيل خلاص البشرية من الجهالة والظلم والعدوان ...

وما إن بلغت المغارة ، حتى ألفيت « نفرت » جالسة متربعة على الكثيب الأصفر ، تحت وهج الشمس ، بعيداً

عن ظلال النخيل ، وقد عقدت يديها بصدرها ، وحلت غدائر شعرها ، فانتفش على رأسها ، وتهدل على كتفيها ... كانت صامتة يعروها ذهول ، واستبان لى أنها كست نحرها بزرقة قاتمة ، فقلت على الفور :

ما بك يا « نفرت » ؟...

قالت ، وهى ترمى ببصرها فى الأفق البعيد :

لقد رحل « كاى » إلى برزخ الأرواح ، حيث يبدأ رحلته فى عالم الأضواء الزرق ...

فركعت من فورى ، أطلب للروح المتحررة طمأنينة الخلود فى العالم السرمدى ...

وشغلنا أياما وليـــالى ، أنا و « نفرت » ، بتحنيط الجثة ، ثم قمنا ببناء مدفن من حصباء الصحراء وأحجارها ، حيث تتراءى ظلال النخيلات ، وأقفلنا على « كاى » العظيم

باب المقبرة ، كى يبقى فى هدوء حتى يوم الخلاص ...

وواصلت حياتى مع « نفرت » وحيدين ... وأعترف أنها كانت حياة قلقة حائرة ، لم تخل من نوبات اضطراب نفسى ...

واشتد بى الحنين إلى الرحيل ... وطفقت أتحين فرصة العودة إلى « أنب — حز » وطنى الأول ... لن أنتظر مرور قافلة ، فإن القوافل مجهولة المواعيد ، وربما افتقدتها الشهور الطوال ...

ويوما عدت إلى « الواحة الخضراء » بعد جولة مضنية فى مطارح الصحراء ، وقد تلهبت عاطفتى ، وتناوحت الأفكار فى رأسى ، فألفيت « نفرت » فى ظل النخيلات جالسة تطحن الشعير ، وقد مشطت شعرها ، وتضوع منها شذى طيب ، وبانت حول رأسها عصابة بيضاء ناصعة ، على حين كانت عيناها النجلاوان المكحولتان بالزرقة ترميان

بنظراتهما الحالمــــة فى الأفق العريض ... أما وجهها فقد اصطبغ بحمرة أشبه بحمرة الآجر المحرق القريب العهـــد بالخروج من النــار ...

كانت تطحن الشعير فى هوادة ورفق ، يداها تدوران كأنمـا تتلهيان ، وجلستها متراخية ، ورأسها مســـند إلى إحدى النخيلات ...

ووجدتنى أقف لأتملى هـذه الصورة الرائعة ... لـكأنما هى قبسة من النور الأزلى ... ولبثت فى وقفتى أعب من ذلك السحر العلوى ...

وأحســت بى ، ولا أدرى كيف ، فإنى حرصت على ألا تصــــدر منى حركة أو نأمة ، وأدارت بصرها إلىّ ، فأشرق وجهها ، وتألقت فى عينيها هالة الـكحل الأزرق اللماح ...

واندفعت تحدى تقول :

لقد رأيت الساعة رؤيا عجيبة !...

— أية رؤيا ؟...

— رؤيا منام ...

— ولكنك يا بنية كنت يقظى مفتوحة العينين ...

— أكنت ترقبنى ؟...

— لبثت وقتا مأخوذا بضوء ألاق ينبعث من روحك الصافية ...

— أى ضوء تعنى يا « بتاح » ؟...

— ضوء وهاج ... لكأنه قبسة من النور الأزلى ...

أنت يا « نفرت » فيك من روح الإله نصيب ... إن تلك السنين التى قضيتها بين الرمال الشاسعة ، تحت وقدة الشمس الساطعة ، فى هذا الكون الشامل العميم ، أفاضت عليك العذوبة والصفاء والنار ، وجعلت منك مخلوقا أقرب إلى

نور الأزل منه إلى ظلمة الإنسان ! ...

فأسبلت جفنيها ، وقالت فى صوت مهموس :

هذه الرمال الشاسعة ، والأشعة المتوهجة ، والسكينة الشاملة ، لن تبقى من حولى ... أحس أنها إلى زوال .

فأمسكت بيدها ، وقلت فى تلهف وتخوف :

ماذا تقولين يا بنية ؟ أفصحى .

— إنها الرؤيا التى رأيتها الساعة ، وأنا فى غيبوبة اليقظة .

فشددت على يدها أقول :

ماذا رأيت يا « نفرت » ؟ ماذا ؟

فواصلت قولها وهى مغمضة العينين :

شاهدت بساتين خضراء ، ومياها دافقة ، وأناسا متزاحمين ... دنيا عجيبة ليس لى بها عهد ...

فصحت على الفور :

يا لروعة الروح المشرقة ... ألم أقل لك إنك قبسة من النور الأزلي ؟ ... ستتحقق رؤياك يا « نفرت » ... بل إنها في سبيل التحقق الوشيك .

ففتحت عينيها جزعة تقول :

كيف ذلك يا « بتاح » ؟

— أتيت الساعة لأخبرك بأننا سنرتحل .

فهمهمت ، وقد اشتد جزعها :

نرتحل ؟ إلى أين ؟

— إلى الأرض الخضراء ... عروس النهر العظيم !

فالتصقت بي راجفة ، وقالت :

وأين هذه الأرض الخضراء ؟

— إنها « أنب — حز » ذات الأبواب السبعة ، والأسوار الناصعة البياض ، « أنب — حز »

العظيمة ... هنالك نبدأ حياة جديدة ، حياة الجهاد في سبيل نشر الدين الحق ، ديننا الجديد ، نقيم صرحه على دعائم وطيدة ... هنالك نعلي كلمة الحقيقة العليا التي تستمد من النور الأزلي وجودها .

فازدادت انكماشاً واحتماء بي ، فأحطتها بساعدي ، وقد سرى في روحي شعور غبطة وارتياح لم أعهده من قبل .

وغمغمت « نفرت » :

إنني خائفة ...

— أتخافين وأنا معك ؟ سنرتحل حتما يا « نفرت » !

فانتزعت نفسها مني بجفاة ، وهي تقول :

لا ... لا أرتحل ...

— كيف ؟

— لا أبرح تلك البقعة الطاهرة ... مثوى « كاي » ...

أنا هنا موصولة به ... قلبي هنا دفين تحت هذه النخيلات ، فكيف أرتحل عنه ؟

— إن « كاى » معنا حيثما نذهب يا « نفرت » ... إذا حجب الناووس جسده اليوم عن دنيانا ، فإن نوره قد حل فى جسدى ، وإن روحه قد امتزجت بروحى ... إننى أنا « كاى » يا بنيتى « نفرت » ... ألا ترينى أهلا لأن أكونه ؟ ألا تحسبيننى خليقا أن أحوطك بحبى ، وأمنحك هداية وأمنا ؟

فترقرقت فى عينيها الدموع ، وهى تقول فى صوت المستضعف :

هنالك فى « أنب — حز » سوف يبتلعك الزحام ... سوف يختطفونك منى . . . سوف أفتقدك فلا أجدك معى .

فتلقيت وجهها بين يدى ، وأنا أحـــدق فى عينيها المخضلتين ، وقلت :

لن يستطيع أحد أن يباعد بينى وبينك . . . لقد أصبحت جزءا من كيانى ، لا انفصام لى عنك …
أنت حواريتى الأمينة ، وربيبة تعاليمي ، ولتكونن خير معوان لى على أداء رسالتى .

ووجدتها تهوى على يدىّ ، وانخرطت تقبلهما فى حرارة واهتياج …

٤

أودعنا «كاى» مستقره الصخرى ، وتزودنا بما لا غنية عنه لنــــا فى رحلتنا الأرضية ، وخرجنا من واحتنا الصــــغيرة ، على أكتافنا أحمالنا ، نمضى على الطريق ، مصوبين ناحية الشرق .

شدّ ما كلفتنا الرحلة من مشقة ... صحراء قاحلة جرداء ، لا تعرف لها بدءا ولا منتهى ، ترميها الشمس نهاراً بشواظها ، فتحيلها أتونا يتضرم ، ويغزوها البرد ليلا بصقيعه وأهويته كأنما هى مناشير تهرأ أجسادنا ...

وكنا إذا متع الضحا ، أوينا إلى أقرب كهف أو جحر نلتمس فيه الوقاية والراحة ، فإن لم نجد كهفا ولا جحراً ،

نصبنا شبه خيمة تصد عنا وقدة الهجير ، حتى إذا أرخى الليل سدوله نشطنا للسرى ...

وكثيراً ما كنت أجد « نفرت » تعروها كآبة ، ويبدو عليها استسلام حزين ، فأحاول جهدى أن أسرى عنها ، أغنى لها مقطوعات ، أو أسمعها بعض القصص والأفاكيه ، أو أسترسل أمامها فى مناجيات صوفية للإله الحق ، نور الأزل ...

وكانت فى أوقات راحتنا تلوذ بقدمى ، متوسدة ركبتى ، فأربت شعرها فى حنو وترفق ...

وذات ليلة ، والقمر يكسو الصحراء الواسعة بلألائه ، قلت لها :

شدّ ما أنا ضائق بمتاعب هذه السفرة التى تحتملينها بصبر وجلد ... ولكن كل شىء يهون ، وستتحقق بغيتنا قريباً

فى « أنب — حر » ... لقد أصبحت منا دانية المنال ...

فأجابتنى ساهمة :

أخشى أن ألقى فى « أنب — حر » من الشدائد والمصاعب ما تتضاءل بجانبه متاعب هذه السفرة ...

— فى « أنب — حر » نلقى خيراً وبركة وسعادة ...

فالتمعت عيناها غضبا ، وقالت :

لو استطعت أن أحرق هذه المدينة لفعلت ...

فقهقهت أقول :

يا للطفلة ... لن تحرقيها يا بنية ... بل ستحبينها ...

فأمسكت بيدى ، وشدت عليها فى جزع ، تقول :

ما ذكرت « أنب — حر » إلا استشعرت فى أوصالى خوفا وقلقاً .. أرى فى المنام أن أسوارها البيضاء ستهوى على رأسى ، وتدفنى تحت أنقاضها ...

فأحطتها بذراعى ، وقلت :

« نفرت ، يا ابنتى ... لن تنقض عليك أسوار المدينة ، بل ستلقاك بالترحاب ... ستفتح لك أبوابها المبحسة على سعتها ... فتدخلينها آمنة بسلام ...

وبلغنا بعد لأى منطقة مناقع النيل المرهوبة ، ذات الماء الضحل ، والعشب المتكاثف ، وفيها تكمن أخطار الضوارى ، ولكننا تفادينا من هجمات التماسيح وعجول النهر ... بما وهبنى الإله من فطنة وبصيرة ...

ولطالما حملت « نفرت » على كتفى ، وأنا أخوض تلك المناقع ، فتشيع فى نفسى راحة وهى متشبثة برأسى ، وقدماها ترتطمان بصدرى .. ولطالما اتخذنا من فروع الشجر وجذوع النخل مراكب تعيننا على اجتياز المناقع البعيدة الأعماق ..

وأخيراً وصلنا إلى مجرى النهر العظيم ، فعبرناه ... ولما احتوتنا الأرض اليابسة على الشاطىء الآخر ، تبدت أمامنا الخضرة على مد البصر ، فمضينا نسير ...

وطالعتنا «أنب — حز» بأسوارها العالية البيض ...

ومثلت أحدق فيها من بعيد ، وأنا مبهور العين ، جياش النفس ، وإذا بي أخر راكعا ضارعا إلى الإله الأعظم أن يسدد خطاى !...

٥

ووصلنا إلى الأسوار ...

ومثلنا أمام البوابة الكبرى ، حيث يترامى الناس عليها بين قادم ومرتحل ، وجعلت أتصفح الوجوه ، لعلى أعثر بينها على من أعرف ، فلم أجد من يستوقف ناظرى ...

وتجلت لى رسوم حائطية ، تمثل مشاهد دينية ، فوقفت حيالها أتطلع ...

وبدت علىّ الدهشة ، فقالت لى « نفرت » :

ماذا فى الأمر يا أبى ؟

فطفقت أعتصر جبهتى ، وأنا أنعم فى الرسوم نظرى ، أحاول أن أكتنه معناها ، مهمهما :

رسوم وكتابات لا أفقه لها مدلولا ...

— إن ما يخفى علينا اليوم ينكشف سره لنا غدا ... صبرك !...

وكان عن كثب منا رجل ينظر إلينا متعرفا ، فتدانى منى يقول :

يبدو لى أنكما مغتربان

— نعم يا سيدى ...

— أتطلبان عونا ؟

— أرغب فى استجلاء معنى هذه الرسوم .

— إنها صور تمثل الكاهن الأعظم «سنكرع» وهو يقدم القرابين مع الحواريين إلى الإله «بتاح»

— «بتاح» ... الإله ؟

— نعم أيها الرجل الطيب ... إنه إلهنا ... باعث ديننا الجديد .

— أعلى ثقة أنت بما تقول ؟

فابتسم الرجل ، وهو يربت كتفى ملاطفا ، وقال :

ليس فى الأمر من غرابة ...

والتفت إلى « نفرت » يقول فى ترفق :

اعتنى بأبيك يا بنية ... إن وعثاء الطريق أجهدت قواه .

وما لبث أن انصرف عنا .

وقلت لـ « نفرت » :

أسمعت القول ؟

— إن إلههم الجديد يدعى « بتاح » ...

— وهذا ما يحيرنى .

وعدت إلى الرسوم أقلب فيها النظر ، وألفيتنى أغمغم :

« بتاح » أصبح إلها للدين الجديد !...

فقالت لى « نفرت » :

أىّ « بتاح » تعنى ؟ أنت ؟

فقلت مجيبا :

ذلك ما أخشى أن يكون !

فرفعت « نفرت » وجهها إلىّ ، قائلة فى سذاجة بريئة :

ألا يروقك أن تكون إلها ؟

فأجبتها على الفور ، وأنا أمسك بيدها :

الزمى الصمت يا « نفرت » ... إنها ألغاز ... لابد أن نتبين ما وراءها .

وسرنا مجتازين البوابة ، وقلت لأحد الأحراس :

أنا مغترب يا بنى ... أخبرنى أين ألقى رئيس الكهنة ؟

— فى المعبد الكبير ... مكانه المختار أيها الشيخ الغريب .

وشكرت له ، وتابعت خطوى ، وطوتنا المدينة فى جوفها ، ودارت الدنيا أمامى ، وزاغ بصرى ...

هذه « أنب ــ حــز » أراها بعد اغترابي الطــويل ... خرجت منها طريداً مهدر الدم ، وعدت إليها اليوم وأنا فى دوامة من المعميات !

ما بال هؤلاء السابلة يشيرون إلىّ ، ويتهامسون بى ، وفى نظراتهم تساؤل ، كأنى من عجائب المخلوقات ؟ ... وما لهــؤلاء الأطفال يفرون من وجهى فزعين ، كأنى من أغوال البرارى ؟ وما للفتية العابثين يقذفوننى بالحصا ، كأن بى جنة ؟ يا لهذا اللقاء الأليم !

ووضح على « نفرت » ، وهى تدير بصرها حولها سيماء خوف واستطلاع ... وأحسست بيدها تشد على ساعدى ، فقلت لهــا :

ما بك يا ابنتى ؟

فهمست لى :

إنها المدينة التى رأيتها فى نومى تتهـــاوى على رأسى ، وتوارينى فى ركامها .

فلاطفتها أقول :

أنت فى حمايتى ... لا تخشى شراً ...

وأخيراً اهتديت إلى المعبد الكبير : بناء شامخ الذرى ، ألفيتنى أتأمله فى تهيب وتعجب ، وبينا أنا مستغرق فى هواجسى وأخيلتى ، إذ علت ضجة ، وساد هرج ومرج ، والتقطت أذنى أصواتاً تقول :

« سنكرع » ... رئيس الكهنة « سنكرع » .

وما هى إلا أن أقبل علينا موكب حافل ، والناس على جانبيه مطأطئة رءوسهم من خشوع . ولما اقترب منى استبان لى من فخامته وأبهته ما لم يخطر لى ببال ... شاهدت محفة تجللها أستار من سندس ، يحملها عبيد أشداء ، أجسادهم

العارية تلتمع فى وهج الشمس التماع الصفائح المصقولة ، ومن حول المحفة كهنة وحاشية وجنود .

ولمحت فى المحفة رجلا جليل المنظر فى حلة ثمينة ، تحيط به الوسائد والنمارق ، وتتعهده المراوح الكبيرة يمنة ويسرة .

محال أن يكون هذا هو صاحبى « سنكرع » ... محال !

وملت على رجل بجوارى أقول :

من يكون صاحب هذه المحفة ؟...

فأجابنى وهو محنى القامة :

ألا تعرف رئيس الكهنة « سنكرع » ؟...

ولاح لى وجه صاحب المحفة بملامحه ، فملكنى ذهول ، وانتظرت حتى ترجل ، فخطوت إليه ، وأنا ممسك بيد « نفرت » أدفع جموع الناس دفعا ، وسمعت زمجرة الخلق

من حولى ، وشدّ علىّ الحراس يقولون :

ماذا تبغى ؟...

فصحت أردد :

أريد أن ألقى رئيس الكهنة !...

وتجمعوا دونى يأخذون علىّ الطريق ، وازددت صياحا :

اتركونى أذهب إلى رئيس الكهنة ... أريده لأمر جلل ...

وسمعت صوتا مهيباً يقول :

خلوا عن الرجل ... ليتقدم منا ...

وأقبلت على « سنكرع » ومعى « نفرت » ، وبهرنى منظره ، فوقفت حائراً مبلبل الفكر ، وسمعته يستأنف القول :

ماذا تطلب يا رجل ؟...

فسموت إليه ببصرى مهتاجا أقول بملء فمى :

إنى لك صديق قديم ... طال اغترابى ... أريد أن

أفضى إليك بحديث خطير ... ألا تعرفنى ؟

فتفحصنى لحظات ، وقد عقد ما بين حاجبيه ، ثم جمجم :

سألقاك بعد حين ...

والتفت إلى عريف أحراسه يقول :

قودوا الرجل وابنته إلى مثوى الغرباء ... ليكونا في حراسة العبد « رخت » والأمة « خنوت » ...

فأحاطت بي وبالفتاة شرذمة من العسكر ، على حين سار رئيس الكهنة إلى باب المعبد ، متهادياً عليه مهابة ...

٦

كان مثوى الغرباء الذى ساقونا إليه ، جناحا مستقلا فى المبنى الخلفى للمعبد ، وفى حجرة متواضعة منه كان مقامنا ، يتولى حراستنا العبد « رخت » والأمة « خنوت » .

ومرت بى فترة حسيرة وحنق ، واستبد التعب بـ « نفرت » ، فلكها سبات ، فبسطت عليها دثاراً ، وجلست منها عن كثب حذراً أترقب .

وبينما أنا فى ملتطم من فروض وظنون ، قدم الحجرة العبد « رخت » والأمة « خنوت » ، وكانا متماثلين فى بسطة القامة وصلابة العود ، كأنهما محاربان جسوران ، بيد أن « رخت » جهم صارم الملامح ، على حين بدت « خنوت » أنيسة تلوح على محياها بشاشة ...

أبلغني «رخت» أن رئيس الكهنة يبغيني ، فنهضت على الفور ، ونظرت إلى «نفرت» جزعا ، فعجلت «خنوت» تقول :

لا تخش عليها بأسا ... إنها فى أمان ... سأرعاها ...

وسرت مع «رخت» يشملنا صمت عميق ، وجاس بى خلال سرداب تغشاه عتمة ، فانتهى بنا إلى باب دخلنا منه ، فإذا نحن فى حجرة متوسطة تكاد تخلو من أثاث ... وسمعت «رخت» يقول فى صوت الآمر :

انتظر ... لا تبرح مكانك ...

وانصرف عنى فى خطا ثقال ، وقد رد الباب خلفه ...

ومثلت أقلب الأمر على شتى وجوهه واحتمالاته ...

وصافحت مسامعى خطوات متساوقة ، وما هى إلا أن انفرج الباب عن طيف «سنكرع» ... دخل ، وبيده أغلق الباب ، وطفق يتأملنى متفحصا ، وعيوننا موصولة ، ثم

خطا نحوى فى ريثه ، وقال رزين اللهجة :

أفصح عن شخصيتك ... من تكون ؟...

فأجبته :

ألا تعرفنى يا « سنكرع » ... أنا صديقك القديم ... أنا « بتاح » ...

فتعقد جبينه ، وهو يردد مهمهما :

« بتاح » ... « بتاح » ... أمر لا يستسيغه العقل !...

فأقبلت عليه مهتاجا أقول :

أنعم النظر فى وجهى ... أخفيت عنك سماتى إلى هذا الحد يا « سنكرع » ؟... أنا « بتاح » ... أنسيت ما كان من أمرى فى نشر العقيدة وإحياء الدين ؟...

— صه ... لا تعل من صوتك ...

— أعرفتنى أم مازلت تنكرنى ؟...

— لقد خامرني فيك شك ، حين لقيتك بباب المعبد ...
إلا أن معرفتي أو إنكاري لا يقدمان ولا يؤخران ...
لم يعد لذلك كبير شأن الآن !...

قال ذلك في لهجة ترفع ، فقلت :

— أسألك الصراحة ... أما زلت تشك في أني « بتاح » ؟...

فأجاب :

— لم تعد شخصيتك ذات بال ... لقد فصلنا في أمرها
فصلا حاسماً لا يقبل المعاودة ...

فنظرت إليه مغيظا أقول :

— يبدو لي أن عودتي لم تقع موقع الرضا منك ...
أساءك قدومي ؟...

— لا ... البتة ... ليس في قلبي إلا الشفقة عليك ...

— الشفقة عليّ أم الإشفاق مني ؟...

— أى إشفاق ؟... أنا لا أخشى أحداً !...

— لا تحسبنى يا « سنكرع » أنافسك فيما تم لك من شأن ...

— المنافسة تقوم بين اثنين من البشر يا هذا !...

— ألسنا كلانا من البشر ؟...

فصمت لحظات ، وهو يرمقنى بنظرات غامضة ، وقال :

— أنا من البشر ... أما أنت ...

فبادرت أقول :

فمن أكون إذن ؟...

— أنت ... ما أنت إلا طيف ... خيـــال لشخص لا وجود له ...

— أهكذا تصفنى يا « سنكرع » ؟...

فتقدم منى ، وأمسك بساعدى يضغطه ، وقال :

ألا تعلم أن « بتاح » هو إله هذا البلد الأمين ؟...

— لم يكن « بتاح » إلها ... إنه بشر من لحم ودم ... وها هو ذا يتنفس أمامك ...

— حذار أن تقول إنك « بتاح » ، إذا أردت لنفسك السلامة ... هيهات أن يكون معبود هذا البلد رجلا يمشى على الأرض ، وما يجرؤ اليوم أن يتسمى باسمه واحد من البشر .

فألفيتنى أضرب رأسى بكلتا يدىّ ضربات متوالية ، وكأن بى لوثة ، وتصايحت قائلا :

أكاد أجن إزاء هذه الطلاسم والأحجيات ...

فقادنى « سنكرع » إلى المتكإ ، وقال فى هدوء :

جلوسا ... نتحدث معا فى روية وهدوء ... وإن يستعصى علينا حل نرتضيه ...

وجلسنا صامتين مليا ، ثم استأنف « سنكرع » قوله :

— فى المعركة التى دارت بيننا وبين أتباع « بهاتور » ، أيقن الجميع أن « بتاح » داعية الدين الجديد سقط صريعـــاً ، وتمزقت أوصاله ، وتناثرت مختلطة بأوصال من سقط من الشهداء ، فلم يعثر له على أثر ...

— وأنت ماذا كان علمك بجلية الأمر ؟...

— لم أتحقق الأمر فى دوامة الأحداث على يقين ... أنجا « بتاح » ببدنه ، أم لقى مصرعه ؟

فقلت وأنا منكس الرأس ، أضغط جبهتى ضغطا :

لم أستطع وقف القتال فى تلك الليلة الليلاء ، وهالنى تساقط الأبرياء ، وغشيتنى ذهلة ، فلم أدر بنفسى إلا وأنا فى متاهة الصحراء

وأمسكت عن الكلام ، فسمعته يقول :

واصل قولك ، وحدثني بما كان في غيبتك ...

فقصصت عليه قصتي ، وكيف اهتديت إلى الشيخ « كاى » ، وكيف أمضيت معه بقية أيامه ، وكيف عدت مع حفيدته « نفرت » التي تبنيتها إلى أرض الوطن ، وقلت في ختام حديثي ، ولهجتي فيها مرارة وأسف :

عدت لأرى الدنيا غير الدنيا ، والدين غير الدين ...
ورحت أذرع الحجرة بخطوات مضطربة ، وأنا أردد :
أين تعاليمي التي تركتها خلفي ، وأنا أرجو لها النمو والازدهار على يديك ؟ ... وما خطب هذا الإله الجديد ، إله الزيف والضلال ؟

فنهض « سنكرع » ، ووقف أمامي يحدجني بنظره ، وقال خشن النبرات :

اقصد في قولك ، واعلم أن كل ما تم هو عين الصواب .

ثم رمى الأفق بعينه، وكأنه يستعيد حلما بعيداً، وقال :

كاد الدين يندثر، وأصحابنا يتهاوون جملة فى المعركة الشعواء، وأنت لا يعرف لك مصير، فاضطررت أنا وحفنة من الشيعة تثخنهم الجراح أن نتوارى عن العيون، محتمين بالكهوف والأحجار، فراراً من التعب والطلب ... يالها من أيام شداد ... جزناها بشق الأنفس، وأوشكنا فيها أن نتفانى، فتنطوى راية الدين معنا، لولا معونة الأمير الشاب «ميناو» ابن فرعون ...

فتطلعت إليه متذكراً، أقول :

«ميناو» ... كنت أعلم ما بينه وبين رئيس الكهنة «بهاتور» من شقاق ... ولا أنسى أنه عرض علينا الانضمام إلينا، فلم أرتض أن يتخذ نصرة الدين

سبيلا إلى مأرب له ، يشفى غليله ...

فنظر إلىّ ، وقد برقت عينه ، وقال :

لقد سعى إلينا هذا الأمير ، وقد ضاق ذرعا بطغيان رئيس الكهنة « بهاتور » وتسلطه على المدينة ، حتى لم يبق لفرعون معه سلطان ... سعى إلينا متودداً لمبادىء الدين الجديد ، وأمدنا خفية بما استطاع من عون ، ونذر أن يعترف بديننا إن ولى الأمر بعد أبيه ، تخلصا من وطأة « بهاتور » ... وكان !...

— و « بتاح » ... كيف صار عندكم إلها ؟...

فخطا بضع خطوات ، ثم عاد يقول :

نعم ، لقد صار إلها ... بعد انتهاء المعركة ، شاع بين الأنصار أن « بتاح » ارتفع إلى العلا ، عقب مقتله ، وأن روحه قد اتحدت بالقدس الأسمى ،

فإذا هو إله ، وما لبثت الإشاعة أن أضحت عقيدة راسخة لا يزعزعها ريب ...

— وكيف أبحت لنفسك أن تجارى القوم فيما ابتدعوا وما أشاعوا ؟

— إنقاذا للعقيدة ، وجمعا لشمل الأنصار ، بعد أن تخلى عنا « بتاح » ولم يظهر له أثر ...

— لم يكن استخفائى تخليا عن واجب ... لقد آثرت النزوح عن بلدى ، والاعتكاف فى مكان قصى ، بعد أن تبين لى فى وضوح أن مواصلة الدعوة إلى دين جديد فى ذلك الوقت تقتضينى إراقة دماء وإزهاق أرواح ... وهذا ما يأباه وجدانى كل الإباء ... لقد دعوت إلى دين مصافاة وسلام ، لا دين حرب وصدام ...

— هذه حكمة تستوحى فيها مثلك الرفيعة ، وإنها لتتنافى مع طبائع الأشياء ، ولا تواثم ضرورات الحياة فى الهدم والبناء ...

— أية حياة تلك التى تقوم على عداء وصراع ؟

— إن الحياة جهاد فى سبيل العقيدة ، فإذا لم يكن جهاد فلا عقيدة تحيا ، ولا دين يسود ... إن هو إذن إلا جمود الضعف والتخاذل والاضمحلال ...

— أمتهمى أنت بأنى ضعيف متخاذل يا « سنسكرع » ؟

— لقد أبيت أن تساير نواميس الطبيعة ، وتجارى واقع الحياة ...

— علينا أن نطهر هذه النواميس من أدرانها ، وعلينا أن نروض الواقع الهمجى ، ونهذب حواشيه ...

— جهد ضائع ، وسراب خادع ...

لقد عبثتم بالدين والعقيدة أيما عبث ...

فصاح « سنكرع » يقول :

— إن جوهر الدين مصون لم تمسسه يد عابث ...

— يالمهزلة التي لحقت بنا !

فظل « سنكرع » وقتاً صامتاً مرفوع الهامة ، ثم قال :

إني أعمل جاهدا في سبيل الخير المطلق ... حررت البلد من الإرهاب الديني ، وأشعت الطمأنينة في القلوب ، وأصبح الدين بين أهليه سبيل تراحم وتعاطف ، لا أداة اضطهاد وتنكيل ... لقد عملت كثيرا ، وسأواصل عملي ما حييت ...

— ولكن أين دعائم ديننا الأصيلة ، دين الإله الحق ، نور الأزل ؟

— أصالة الدين مصونة ... من الخير ألا تتعجل ...

ستنمو مبادىء الدين وتترعرع مع الزمن ... إنها اليوم غراس ، ولكنها فى غد أدواح وارفة الظلال ...

— من الذى علمك هذا البدع من القول ؟ ...

— علمتنى إياه تجارب الحياة ...

— تجاربك هذه لا تساير الحقائق والتعاليم ...

فأطلق « سنكرع » ضحكة شوهاء ، وقال :

الحقائق والتعاليم يجب أن تساير ما تسفر عنه تجارب الحياة ... لقد عشت أنت ما عشت بمعزل عن الحياة والأحياء ... عشت فى عالم صغته من أحلامك المثلى ... عالم لا يلائم الواقع فى قليل أو كثير !

فنظرت إليه مغضباً ، وهو منتفش فى حلته الثمينة ، وقلت له :

الآن يتجلى لى مبعث هذا الترف الذى أنت فيه ... حياة رافهة منعمة ... وخدم وحشم ... وعبيد

وأحراس ... ونحن الدعاة إلى البساطة والتقشف ، إلى الإعلاء من شأن الروح ، إلى تطهير الجسد من نزواته الجامحة ...

فقال فى صلابة :

الإعلاء من شأن الروح بإهمال الجسد وتعطيل مطالبه ، غلواء لا تحمد عقباها ... لابد من مزاوجة ومداجاة ، لكى تتوافر لنا حياة سوية لا شذوذ فيها ولا حرمان ...

— أنت بأقاويلك هذه تهدم مابنيت لك .. مارسمت أنا « بتاح » ... « بتاح » رائد هذا الدين ! ...

— صه ... لا تسم نفسك هذا الاسم الأعظم ، وإلا فتك بك عابدوه ... تعقل ولا تكن جامدا ، تعاكس بأحلامك الموهومة تيار الواقع الجارف ... تخير لك

اسماً آخر إن طلبت بين قومك معاشا ...

وسكت لحظات ، ثم أكمل قوله :

ما رأيك فى اسم « بتاح ـ حتب » ؟ ... اسم لا يبعد بك عن اسمك ولا يثير عليك سخط الخلق ...

فعقدت يدى على صدرى ، وقلت :

من تحسبنى يا « سنسكرع » ؟ أحسبتنى طفلا يتلقى النصـــح ؟...

فقال فى جد :

أنسيت يا « بتاح ـ حتب » أنى رئيس كهنة « بتاح » الإله الأعظم ؟ أنا صنو فرعون ... صاحب الملك والسلطان ... أملك من الأمر فى البلد كفاء ما يملك ...

لا تكن عنيد المراس ، صعب القياد ، وتقبل منى ما يتيح لك عيش الحرية والكرامة ...

— وإذا لم أذعن ؟...

— سأضطر إلى ما لا تحمد !...

ثم أزهرت عيناه ، كنسر حتى ، وقال فى لهجة المتوعد :

إذا أعلنت من أمرك غير ما أشرت به عليك ، فلن تجد لك مصدقا ، حتى أتباعك القدامى ... لن يمضوا فى تبارك مهما تفعل ... إنى الآمر الناهى ... كلمتى هى العليا ... لقد استتب الأمر للدين على الوجه الذى انتهى إليه ، وارتضيناه أجمعين ؛ ولن تستطيع أنت ولا غيرك له تبديلا ولا تحويلا ...

وهزنى هزة عنيفة ، واستأنف قوله ، وهو ينفذ بنظراته فى عينى :

أسدل الستار على ماضيك ، وابدأ صفحة جديدة

باسمك الجديد . سأستعينك ما أردت ... سأعينك
كل العون ... فكر فيما قلته لك يا « بتاح ـ حتب » ،
وتوخ سعادتك وسعادة ربيبتك !...

وحياني مودعا ، وزايل الحجـــرة ، يرفل فى حلته
الثمينة . . .

٧

اليوم أهادن « سنسكرع » ، ولكن مهادنتى له إلى حين ، ارتضيت أن أتسمى « بتاح ـ حتب » حتى لا أثير ثائرة القوم ... إنهم ليعتقدون أن « بتاح » قد ذهب شهيد رسالته المقدسة ، وأنه كوفىء على ذلك بأن استحال إلها ، هو معبود الدين الجديد ، وذلك تمثاله يتصدر المعبد ، يتلقى من حوله قرابين المؤمنين ، ويتسمع إلى ما يجأرون به من ضراعة وابتهال ...

ولقد عرض علىّ رئيس الكهنة « سنسكرع » أن أتخذ مثواى أنا و « نفرت » فى جناح من المعبد يطيب المقام فيه ، فأبيت ، وقنعت بحجرتين ضيقتين عاريتين من الأثاث خلف المعبد ، إحداهما لى ، والأخرى لـ « نفرت » ...

ولم تطوّع لى نفسى أن أستبدل بملابسى المنسوجة من الألياف ، وكذلك احتفظت « نفرت » بثيابها البالغة السذاجة ... أما الطعام فكنا نعده بأيدينا ، ونكتفى منه بما يقيم الأود ... وهكذا واصلنا فى « أنب ـ حز » حياتنا التى كنا نحياها مع الشيخ «كاى» فى الواحة الخضراء ، حياة النسك والزهادة ، حياة من يؤثر السمو الروحى على توافه الدنيا وقشورها البراقة ...

أما العبد « رخت » والأمة « خنوت » اللذان أقامهما « سنكرع » حارسين يتعهداننا بالخدمة والرعاية والرقابة ، فكانا زوجين ، جاوزا عصر الشباب ، يضمهما مسكن خاص على مقربة من المسكان الذى نأوى إليه . وكانت الأمة « خنوت » ثرثارة فى طبعها فضول ، وطالما جلست معنا تصف لنا « أنب ـ حز » ومعبدها العظيم ، وتروى لنا أشتاتا

من أقاصيص الناس . ثم تنبرى لاستطلاع أخبارنا ، فكنت أفضى إليها بشذرات من حياتى وحياة « نفرت » فى صحبة القديس « كاى » .

واطمأن « سنكرع » إلىّ ، لما آنسه من أنى أمارس عيش النساك ، وأنى عن الدنيا عزوف ، وللناس معتزل ، فأطلق لى حرية الخروج من المعبد فى الفينة بعد الفينة .

وكان القلق يساور « نفرت » بادىء بدء ، ولكن عاودها الهدوء لثقتها بما أقول ، إلا أنه هدوء صامت يغشاه تأمل أقرب إلى الذهول . وكثيراً ما كانت تحدق فى وجهى بلا كلام ، كأنها تسائلنى : أهذا ما كنت تطمح إلى تحقيقه فى « أنب - حز » ؟ أإله أنت أم إنسان يا « بتاح » ؟

فأربت يدها ملاطفا ، وأقول :

أنا الآن « بتاح - حتب » يا « نفرت » ، ولزام أن أكون

كما أرادوا لى حتى تنكشف الأمور على حقيقتها ... علينا أن نصطبر !

وكنت أمضى معها الوقت نتذاكر شئون الدين ، ونصلى للإله الحق نور الأزل ، عسى أن يحبونا من لدنه بالعون والتأييد .

وكانت « نفرت » تعيش معى ، كأنها ظل لى ، أحس روحها متعلقة بروحى ، وأضحت رياضتنا المختارة أن نجلس خلف المعبد ، نفترش الحصباء ، أو نضرب فى بسيط الصحراء ، متجنبين منطقة الحقول والبساتين الممتدة على شاطىء النهر الدفاق ، حيث تزهو الحضارة ويتغلغل العمران .

وتعودت من « نفرت » أن أراها ، وهى سائرة بجانبى مصغية إلى حديثى ، تنكس رأسها ، فأحوطها بذراعى ، أغمرها بحنان أبوى فياض ...

كم كانت عذبة تلك النزهات الخلوية التى كنا نستمرىء فيها السعادة الحقة ، من طهر نفس ، وصفاء روح ، وقوة إيمان ...

وقد عرفنا سكان المنطقة فى تجوالنا المتكرر ، وعدّونا من الزهاد الغرباء الذين يتنكبون عن لقاء الناس .

٨

فى ضحوة يوم ، فوجئت بمقدم « سنكرع » فى أبهى حلة وأزهى زخرف ... ثوب من الحرير الموشى ، ونطاق بالذهب محلى ، وشملة حمراء تتوهج ، وعلى الرأس طرطور مستطيل مثلث الأركان ملون الخطوط ، ومن أعطافه يتضوع عطر نفاذ ...

دنا منى هادىء الابتسام ، يقول :

اليوم يقام احتفال مهيب فى البهو الكبير ... وإنى أدعوك إلى شهوده يا « بتاح — حتب » ...

ولم تكن قدماى قد وطئتا أبهاء المعبد ، بل كنت أتحاشاها ... وما عرفت من بناء المعبد تفصيلا إلا هاتين الحجرتين اللتين اتخذتهما أنا و « نفرت » مقاما ...

أجبت الداعى بقولى :

لم تريدنى على أن أحضر هذا الاحتفال ؟...

— إنه احتفال مهيب ، نبدأ به عيدنا الكبير ... عيد الشباب ... عيـــد التعارف والتآلف بين الفتيان والفتيات ... عيد التزاوج فى مودة ورحمة ومصافاة ... نحييه كل عام مستمدين من الإله « بتاح » أن يبارك لنا فى النسل ، ويعمنا بالخير ...

وصمت لحظات ، وهو يخالسنى النظر ، ولما ألفانى ساكن النفس ، لا يهزنى قوله ، واصل حديثه :

إنه عيد أيام متوالية ، خلالها تعقد الزوجيات بين الشباب فى مهرجانات شعبية عظيمة ... حضورك هـذا المهرجان يتيح لك أن تشهد زهرات الشباب وهى فى نشوة عبادتها ، فتتجلى لك عظمة الدين ،

وترى كيف رسوخ العقيدة فى قلوب النـاس ... سنزور الآن بهو الاحتفالات ، حيث يقام حفـل اليوم والحفلات التالية ، والبهو الآن خال من الزوار ، فالفرصة سانحة لأن تملأ عينيك بما يحويه من روائع ، ولك بعدئذ أن تشهد الحفل فى المكان الذى تختار ...

وأمسك بيدى وسار بى ، وأنا صامت تعتلج بين جنبى الأحاسيس ، وتصطرع فى رأسى الخواطر والأفكار ...

وانثنينا نخـــترق دهاليز طوالا ملتوية ، كأنها أجواف الثعابين ، وكانت المسارج الزيتية الموقدة تجاهد عبثاً فى مقاومة الظلمة الغاشية ... وتراءت لى بعض سراديب ضيقة تتشعب من هذه الدهاليز ، غارقة فى ظلام وصمت ، يفوح منها حنوط ...

لم نتبادل خـلال مسيرنا حديثا أى حديث ... وانتهى بنا المطاف إلى فناء رحب ، يظلله سقف رفيع ، مقام على

أعمدة ضخام ، وفى جنباته ظلمة رقيقة كأنها غبشة السحر ...

ومال علىّ « سنكرع » يقول :

ها نحن أولاء قد بلغنا بهو الاحتفال ...

ودرت ببصرى يمنة ويسرة ، فهالنى ما أشهد من فخامة ...
كانت الأرض تحت أقدامنا سوداء ملساء ، لها بريق أخاذ ، والجوائط والعمد من حولنا حمراء عليها نقوش زرق ...

وأحسست يد « سنكرع » تأخذ بساعدى ، وتنحو بى ناحية ، وهنالك طالعنى تمثـــال سامق ضخم ، على هيئة إنسان ، وانف وقفة إمرة وسلطان ...

وألفيت « سنكرع » يركع أمامه فى تخاشع ، ويرتل أدعية وصلوات ، ثم عاد إلى وقفته بجانبى ، فقلت له ، وعيناى شاخصتان إلى التمثال :

لمن ركوعك يا « سنكرع » ؟...

— للإله « بتاح » ... إلهنا الأعظم ...

فبدت على شفتى ابتسامة ساخرة ، وقلت لرئيس الكهنة :

وماذا كنت تتفوه به ؟

— صلاة تحية ، أستقبله بها .

فقلت له على الفور :

أهزؤا بى يا « سنسكرع » ؟

فأجاب :

كلا !

فصحت :

أتؤمن بهذا الإله يا رجل ؟

فلم يحر جوابا .

فكررت :

قل .. مامبلغ إيمانك بما تقول وماتفعل يا « سنسكرع » ؟

فربت كتفى ، وقال رزين الصوت :

لا مناص من الإيمان ... يا « بتاح ـ حتب » .

ـــ أتعنى أنه لا مناص من الإذعان للأكاذيب والضلالات ؟ وكيف تتجلى الحقائق إذن ؟

ـــ ما كل حقيقة يجب أن تقال .. ولكل شىء أوان !

فعلا صوتى قائلا :

جدل زائف ، ومهاترة جوفاء !

والتفت إلى التمثال أتأمله ، وأنا صامت مأخوذ .. ثم قلت :

لقد أجدتم صنعه حقا .... إنه هائل ... رائع ... عظيم ... إنى أحس ضآلة شخصى بجـــواره ... يا للسخرية !... الحقيقة تافهة متخاذلة ، على حين تغدو الأكذوبة فى بهاء ورواء !...

وجاشت نفسى ، والتفت إلى « منكرع » أقول :

دعنى أبارح المكان ...

— ألا تبق لتحضر الاحتفال ؟

— أكاد أختنق ...

وتلفتّ حولى ، أستبين الباب ، فما إن وقع عليه بصرى ، حتى دفعت بخطاى نحوه ، وسرعان ما نفذت منه أستقبل فيض الهواء والنور !

٩

ما كدت أخرج إلى الساحة حتى ألفيت جماهير الفتيان والفتيات يحتشدون حول المعبد ، تتبدى مباهج العيد عليهم فى حللهم وحلاهم ، ومن شعورهم الفاحمة المرجلة يضوع عبق نفاذ ، وبأيديهم خصل الريحان بها يلوحون فى طرب واستبشار ...

سرت حثيث الخطا ، متحاشيا أن أخالط الزمر ، واتخذت سمتى إلى المنطقة الجرداء الخالية من العمران ، ورحت أضرب فيها على غير هدى ، وأنا فريسة لأفكار متضاربة ...

يالى من « سنكرع » !...

أى رجل ذاك ؟...

أمضلل هو يكذب قصداً ، ليستمتع بما هو فيه من وجاهة ورفاهة ، ومن إمرة وسلطان ؟... أم قد غدا صريع

أرواح الشر ، عششت فى جسده ، فبدلته خلقا آخر لا يمت بصلة إلى خلقه أول مرة ؟...

توطدت أكذوبة الإله « بتاح » فأضحت حقيقة مسلماً بها ... أفأرضى أن أتابع حيـــاة النفاق والخداع فى هذه المدينة ، وأنا الذى وهبت نفسى لتبديد الأوهام ومحاربة الأكاذيب ، تمهيداً للحقائق الخالصة أن يعلو منارها ؟ ... أفأرضى أن أبقى هكذا على هامش الوجود لا شأن لى ولا بال ؟ . إلى متى الصمت والجمود ؟... ألا أصدع بالحق وأدافع عن الحقيقة الأصيلة ، وإن لقيت فى سبيل ذلك حتفى ؟... و « نفرت » ربيبتى ... ماذا هى صانعة بعدى ؟... أليس من واجبى أن أعيدها إلى واحتنا الحبيبة ، وأن أحيا معها فى جوار « كاى » حياة زهد وعفة ، حياة نقاء وصفاء ؟...

وطال تجوالى ، وأنا أضرب فى متاهات ومجاهل ، والشمس

تلهبنى بسياطها الحامية ، والرمال من تحت قدمى تكاد تشويهما شيا ...

ولاحت لى من بعيد خربة ... فهرولت نحوها ، ولما دانيتها ألفيتنى أمام فجوة ، لم أتردد فى النزول إليها ... وبدا لى على الفور أنها أطلال مقبرة عفى عليها الزمن ، ووجدتنى أتهاوى وأنا أحس برد الراحة فى جوف هذا المكان المظلم الرطب ، وما أسرع أن شملنى خدر ، أسلمنى إلى رقاد ثقيل ...

وحين استيقظت ، وبارحت المقبرة ، تبين لى أنى قضيت ساعات وأنا فى غيبوبة النوم ، إذ كانت الشمس وقتئذ تؤذن بالمغيب ، وصفرة الأصيل تخضب حواشى الأفق ... وانتظمتنى رعدة ، وانطلقت فى عجلة ، مسترشداً بوحى بصيرتى أستعينها على بلوغ طريق العودة ...

وبعد لأى طالعنى ذلك البناء الشامخ ، معبد الإله

« بتاح » ... تتطامن خلفه أبنية المدينة وبساتينها الحالية ... وتراءى لى الباب الخلفى ، حيث يقوم مسكنى ، وعليه تجلس « نفرت » بجوار رجل أجهله .

وما لمحتنى « نفرت » حتى هرعت إلىّ تترامى على صدرى ، شرقة بالدمع ، وسمعتها تغمغم :

كيف تتركنى وحدى طوال هذا الوقت ؟

فطوقتها بذراعى فى حنو ، وقد فاضت مشاعرى ، وقلت :

ضللت طريقى وأنا أجوب البيداء ، فأرهقنى السير ، فرقدت فى فجوة وملكنى نعاس ...

فسمت برأسها إلىّ ، ومسحت وجهها تقول :

أين أصبت طعامك ؟

— لم أطعم شيئا .

— ولا أنا أيضا ... لقد أعددت الغداء ، ولم أذق منه

قليلا أو كثيرا ، منتظرة أوبتك ...

وأخذت بيدى كما تأخذ الأم بيد طفلها ، ووقع بصرى على الفتى الذى كان يجالسها ، فقلت :

من هـذا ؟

— لا معرفة لى به ... ألفانى بالباب أرقب عودتك ، وأنا قلقة حيرى ، فمكث معى يسامرنى ويسرى عنى ... إنه ممن يحتفلون بالعيد .

وتقدمت من الفتى أحييه وأشكره ، فقال لى :

إنى يا عمى أدعى « بنكاو » ، وقد أسعدنى الإله « بتاح » بلقاء ابنتك « نفرت » ، فقضيت معها وقتاً هانئا ...

وكان الفتى فارع العود ، عريض المنكبين ، ممتلئاً بالقوة والحيوية ، وأما نظراته فنفاذة جادة ، تدل على اعتداد واجتراء . وبدا لى أنه ميسور الحال . ولما ألفانى مرهقاً

أنشد الراحة ، حياني في أدب تحية الانصراف .

ودخلت ومعي « نفرت » إلى مسكننا ، وتناولنا طعامنا المتواضع ، مفترشين الحصير ، وأمامنا جرة الماء …

وبينما نحن نطعم ، سألت فتاتي :

ماذا قال لك الفتى « بنكاو » ؟

— حدثني حديث العيد ، ووصف ما يتجلى من مباهج في المدينة ، وما يزدحم من أشياء معروضة في الأسواق … كان حديثه عجيباً ، واقد اختلط بعضه ببعض في سمعي ، واكتظ به رأسي ! …

— لا تتعبي فكرك يا ابنتي « نفرت » بمثل هذا الحديث … ليس ثمة فائدة ترجى منه … إنك بعيدة كل البعد عن تلك الدنيا الصاخبة التي حدثك الفتى حديثها المرش … أنصح لك أن تنفضي سمعك من كل ماقاله لك « بنكاو » …

فغمغمت :

سأفعل يا أبي !...

وعندما احتوانى فراشى ، وتلمست الرقاد ، وجدتنى قد ألم بي الأرق ، وخاصم النوم عينيّ ...

ظل طيف « بنكار » لا يعزب عن مخيلتى ، سواد ليلتى !

١٠

وفى الغداة مضيت مع « نفرت » إلى المنطقة الجرداء ، نجوس خلالها بعض وقت ، لنتجنب جموع الشباب الوافدين على المعبد من كل فج ، احتفاء بالعيد ... وكنا نسير الهوينى مستغرقين فى تأمل وتفكير ، وربما قطعنا الصمت بأحاديث قصار نتبادلها فى اقتضاب ...

وارتسمت على وجه « نفرت » أمارات سهوم وشرود ... أما أنا فقد ناوشنى قلق خفى ، حاولت أن أصرفه عنى عبثا .

وثقلت خطا « نفرت » ، فكانت كأنما تقتلع قدميها اقتلاعا ، فملت عليها أقول :

ما خطبك يا « نفرت » ؟...

فأجابت وهى تضغط جبهتها بيدها :

لا شيء ... لا شيء ...

— أمتعبة أنت ؟...

— قليـــلا !...

وعادت تضغط جبهتها ...

— إذن نعود ...

— لا ... لا تفسد عليك جولتك ...

— حسبنا ما قطعناه من شـــوط ... الشمس شديدة السطوع ، حامية الشعاع ، فلنعد ... سنقضى يومنا فى مسكننا ، حيث الجو رطب ، والضوء خافت ... سننأى عن صخب المعبد وضجيجه !...

فقالت فى نبرة استسلام :

افعل ما تراه صالحا ...

وواصلت الحديث أقول :

إن مثل هذا العيد لم يخلق لنا يا بنية ... عيدنا قائم في قلوبنا ... نحتفي به وقتما نريد ... هو عيد الصفاء الروحي ، والبراءة النفسية ... لا شعائر ولا مراسم ولا أبهة جوفاء ...

فأمنت على قولي دون تردد ...

وشارفنا المعبد ، فألفينا ثلاثة شخوص يتراءون أمام الباب الخلفي ، حيث نسكن ...

تدانينا منهم ، فتوضحت سماتهم ... كانوا هم العبد « رخت » والأمة « خنوت » وفتى الأمس الوسيم « بنكاو » . فهمهمت ضائق الصدر :

إنهم لا يدعوننا في سلام ...

فقالت « نفرت » خافضة الصوت :

وما شأننا بهم ؟...

وأقبل « بنكاو » رافع الرأس ، ثابت الخطو ، على محياه يلوح إشراق ... وحياني في لباقة ، وما أسرع أن أخذ بيد « نفرت » وسايرها يتحدث إليها ويتودد ...

واجتمعنا نحن الخمسة عند الباب ، وسمعت « خنوت » تقول ، وهي تنظر بمجامع عينيها إلى « بنكاو » و « نفرت » :

ما أبهى شبابهما ... لكأنهما عودان أخضران من القمح الناضج ينموان من أرومة واحدة ...

فابتسم « بنكاو » قائلا :

سعيد أنا بقولك هذا يا « خنوت » ...

ولم يلبث أن اتجه إليّ قائلا في تحبب :

أيها السيد العظيم « بتاح — حتب » ... نحن كما تعرف في عيد الشباب ، وإن للشباب في عيده هذا حقوقا مرعية ... وإني ليسعدني أن أتخير « نفرت » صاحبة

لى ، أقضى معها كما تخولنا تقاليد العيد يومى هذا ؛ نستمتع بمباهج المهرجان ، ونشرك الشباب من أترابنا ما يهنأون به من مرح وإيناس ...

وأدهشتنى جرأته ، فنظرت إليه لحظات لا أحير جوابا ؛ ثم أدرت بصرى إلى « نفرت » فوجدتها مسبلة الجفنين ، أنفاسها تتلاحق ...

ولما استعدت جأشى ، قلت للشاب :

شكراً لك على دعوتك يا « بنكاو » ... ولكن « نفرت » ليست من أهل المدينة ... نحن من الغرباء ؛ ولا عهد لنا بمثل هذا المهرجان يا بنى !...

فقال جهير الصوت :

لا يمنع هذا من اشتراك « نفرت » فى المهرجان ... ستكون هى فى صحبتى ، وسأكون لها خير راع

ورفيق ، ولن تلبث أن تألف مظاهر العيد ...

وبادرت « خنوت » تقول :

ما أسعدها فتاة تلك التى يتخيرها السيد « بنكاو » لترافقه فى التفرج بالعيد ... إنه من شبابنا المتفوق ، ومكانته فى المدينة مرموقة ...

فقال « بنكاو » للأمة « خنوت » ، وذراع « نفرت » فى يده يشدّ عليها ، كأنه يخشى أن تفلت منه :

أنت كبيرة القلب يا « خنوت » !

فانبرت « خنوت » فى حديث موصول ، كأنه فيض لا ينضب ، تسبغ فيه على « نفرت » و « بنكاو » ألوان الإطراء ، وتضرع إلى الإله « بتاح » أن يبارك تلك الصداقة ، حتى تؤتى أكلها طيباً ...

وثارت حفيظتى ، فاتجهت ببصرى إلى العبد « رخت »

كانى ألوذ به ، فإذا هو صلب السحنة ، لا تصـــدر عنه نأمة ، لو حسبته تمثالا من صوان لما كان فى ذلك من غلو ولا إغراق ...

ونظر إلىّ « بنكاو » يقول :

ألا تسمح لى بمرافقتها يا عماه ؟

وكانت الزمر من الفتيان والفتيات يمرون بنا ونحن وقوف ، فتلكأ حولنا بعض منهم استرعت أنظارهم غرابة هيأتى أنا و « نفرت » ، ثم ضربوا علينا نطاقا ...

وأجبت « بنكاو » بقولى :

لن تكون « نفرت » سعيدة برؤية هذا المهرجان ...

وصاح فى لهجة وثوق واعتداد :

تيقن أنها ستسعد كل السعادة ...

وسمعت أحد الفتيان يقول :

اسألوا الفتاة لتبدى رأيها ...

وتكمشت « نفرت » باديا عليها الذعر ...

ومال عليها « بنكاو » ، وقال لها فى صوت المتحنن :

ألا ترغبين أن تصاحبينى يا « نفرت » ، لنجول معاً فى مهرجان العيد ، وأطلعك على ما فيه من غرائب وعجائب ؟...

فثلت هى لحظات معقودة اللسان ، وقد ازدادت من انقباض ، ثم جمجمت وشفتاها ترتجفان :

إنى خائفة !

فضحك « بنكاو » ضحكة عامرة ، وقال فى صولة واقتدار :

لا خوف عليك وأنت معى !

وفى طرفة عين ، ألفيته يحمل « نفرت » بذراعيه القويتين ، ويقفز بها متخطيا الجمع من حوله ، وقد ارتفعت

من كل صوب أصوات تهلل واستحسان ...

وشاهدت « بنكاو » يعدو بها ، وهى فى حضنه ، يلفها بذراعيه ، وسرعان ما طواهما الزحام ...

تم ذلك فى لحظات متلاحقة ، لم تدع لى فرصة تدبير وإعمال فكر ، فشهدت ما جرى جامد الأوصال لا أنبس ، ثم ألفيتنى بغتة أنطلق ، وأنا أصيح مردداً :

اتركها أيها الفتى الجرىء ... اتركها بسلام ، وإلا دققت لحمك ، وسحقت عظمك ! ...

وتعالت أصوات السخرية ، وواصلت عدوى وأنا أتصايح كأنى مخبول ...

وتكاثفت دونى الجموع ، تصدنى عن متابعة السير ، وضاع من عينى شبح « نفرت » وصاحبها على الطريق ...

ووجدتنى أتهالك على الأرض ، فسارع إلىّ بعض

السابلة ، ينهضوننى ، وينفضون الغبار عن ثوبى ... وتقدم منى شيخ جعد البشرة ، سمح الطلعة ، وأخذ بذراعى بعيداً عن زحمة الناس ، وقال لى فى رفق :

أيها الرجل الصالح ... ماذا بك ؟

— اختطف أحد الشبان ابنتى ، ومضى بها إلى المهرجان ...

— وفيم غضبك ؟ دعهما وشأنهما ... لماذا تقف حجر عثرة فى سبيل سعادتهما ؟... ثق أن الإله « بتاح » يرعى هذا العيد ويباركه ، فلن يقع فيه ما يسوء ... اترك الشباب للشباب ... ولتكن سعادتنا فى هذا العيد أن يسعد أبناؤنا ...

فتوليت عنه شاكراً إياه ، وحثثت خطاى نائيا عن أعين الناس ، وفى نفسى شعور مهانة وخزى ...

كانت المنطقة الجرداء ملاذى ، دون أعرف لى فيها وجهة سير ، وتضاربت الأفكار فى رأسى : أترانى أخطأت فى تصرفى ؟ وكيف جمحت بى مشاعرى هذا الجموح ، فلم أستطع لها ضبطا ؟ كيف سمحت لنفسى أن أتورط فيما جلب علىّ السخرية والاستهزاء ؟ أكان علىّ بادىء بدء أن أسمح عن طواعية ورضا لربيبتى « نفرت » بمرافقة « بنكاو » ، مجاراة لتقاليد القوم فى هذا العيد ؟...

وعادت جملة الشيخ الوقور ترن فى سمعى :

« اترك الشباب للشباب ... ولتكن سعادتنا فى هذا العيد أن يسعد أبناؤنا ... »

أترى تجد « نفرت » سعادتها فى صحبة شاب مثل « بنكاو » ، ملء نفسه غرور وعنجهية وخيلاء ؟ وماذا من أمرى أنا الذى سويت نفسها ، وطهرت روحها ،

وجعلت منها قديسة تتسامى إلى أعلى مراتب الآلهة ؟...

وألهبت الأفكار رأسى ، وألفيتنى فجأة أمام فجوة المقبرة ، فلم أتردد فى اقتحامها ، وتهاويت على الأرض ، وجعلت أحدق فى السقف المشقق ، وأنا أستعيد ما مر بى من أحداث ، وأحسست فى وجدانى بمرارة ، وفى حلق بغصّة ، وإذا أنا تعرونى نوبة بكاء ، ويشتد بى نشيج ... وسرعان ما خدرت أوصالى ، وامتلكنى سبات ...

واستيقظت متفزعا ، قلقـا على « نفرت » ، فزايلت الخربة ، واتخذت إلى المعبد طريقى على عجل ...

١١

وقفت بباب المعبـد الخلفي ، أرقب إياب « نفرت » ، وامتد بي الانتظار ، وتزايدت مخاوفي ...

وبينما الشمس تميل نحو الغرب ، والظلال تتطاول في سرعة ، وهواء الأصيل يلطف ويرق ، لمحت شبح « نفرت » في صحبة « بنكاو » ، فتقدمت أستقبلهما ، واسترعى نظري على الفور أنها قد اكتست حلة العيد ...

وصاح بي « بنكاو » :

أيها السيد العظيم ... لم يكن لما توهمته أساس ... تلك هي « نفرت » تعود إليك سالمة غانمة ... قضت يومها في بهجة وانشراح ...

فهمهمت :

حسنا ... حسنا ...

وعدت إلى المعبد ، ومعى « نفرت » ، بعد أن ودعها « بنكاو » قائلا لها :

سألقاك صبح غد ... طاب ليلك ...

وفى الحجرة ، كانت فلول أضواء النهار توشك أن تهرب ، وعينى تحدق إلى « نفرت » دون كلام ، فقالت لى خافتة الصوت :

أحانق أنت علىّ ؟...

— كل ما يعنينى أن أطمئن إلى سلامتك ...

— إنى بخير ... فلا تشغل بالك ...

— هل استمتعت بيومك ؟...

فنظرت إلىّ فى براءة ، قائلة :

لا أكذبك القول ... كان يوما طيباً ...

— كنت مخطئاً فى هواجسى إذن !...

ـــ لم يحدث شيء يسوءك ...

ـــ ما رأيك في « بنكاو » ؟...

ـــ رفيق مهذب ... نعم الرفيق !...

ـــ ما دام هذا قولك ، فعليّ أن أصدق ...

وكانت « نفرت » تتألق في ثوب كتاني ناصع ، وحول خصرها نطاق مقصب ، وعلى جبهتها عصابة وردية ، ومن جيدها تتدلى قلادة تحلى الصدر ... فقلت وأنا أتملاها :

قصي عليّ كيف قضيت نهارك ؟... لا تخفى عني شيئا !...

ـــ سأقص عليك كل ما جرى ، لا أكتمك قليلا أو كثيراً ... أنت علمتني الصراحة ...

ـــ تكلمي ...

ـــ كنت أول الأمر ساخطة على « بنكاو » ، منكرة عليه أن يقحمني في المهرجان ... بيد أنه حاطني

برعايته وحنانه ، وأكد لى أنه يعيدنى إليك معززة مكرمة ، وأنك لن تغضب علىّ أو عليه... بل ستشكر له أن توخى راحتى وإسعادى ...

— ثم ماذا بعد ؟...

— حملنى إلى داره ، وأسلمنى إلى أمه ، وهى كريمة عطوف ، فتولت زينتى ، وعطرتى ، وجهزتى بجهاز العيد ، وهو ما ترانى أرتديه ...

وصمتت هنيهة ، ثم قالت :

أخشى ألا تكون راضيا عن مظهرى ... أحق ما أخشى ؟...

— أنت تعلمين رأيى فى الزخرف والترف ...

— هذا زى العيد ، ولن أتخذه لى زيا عقب المهرجان ...

— أتمى قصتك ...

— أصبنا غداءنا نحن الثلاثة ، وكان غداء جيد الطهو ،

سائغ الطعم ، وتحدث « بنكاو » وأمه إلىّ حديثاً أنيساً أزال وحشتى ، ثم خرج بى « بنكاو » إلى ساحة المهرجان ، والناس يموجون فيها موجا ، كأنهم دوامة هائلة ، ورأيت من المشاهد عجائب أثارت بين جنبىّ مشاعر لم يكن لى بها عهد ...

— ماذا رأيت يا « نفرت » ؟...

— أشياء كثيرة ، من ألعاب ، ومهرجين ، وسحرة ، وثعابين ، وقردة ... وسلال فاكهـــة ، وكومات أسماك ، وفطائر ساخنة ... إلى جرار تفيض بالشراب الحلو المذاق ... وغير ذلك كله ... ويا لمنظر النخيل الجميل !... ويا للأزاهير تفرش الأرض كأنها الحصير ... ولقـــد شهدت فى كل ناحية حلقة رقص ، حتى خيل إلىّ أن الدنيا من حولى كانت ترقص ...

فنظرت إليها فى شغف ، وقاطعتها قائلا :

وأنت ... هل رقصت ؟ ...

— أخذ « بنكاو » بيدى ، واندفع بى فى حلقة راقصة ، ومضينا نرقص ونرقص ... نأكل ثم نرقص ... ونشرب ثم نرقص ... والمزامير والطبول والدفوف من حولنا تتناغم ... وأخيراً تعبنا ، فارتمينا على الأزاهير نستريح ، ووسدنى « بنكاو » ذراعه ، ولاطف خصلات شعرى ...

— وماذا أيضا يا بنية ؟

— طبع على جبينى قبلة !

فرأيتنى أتصايح فى هيجة ، وأنا ألوح بيدى :

صمتاً يا شقية ... كفى !

فأصابها ذعر ... ونظرت إلىّ تتساءل ... ووجدتنى أتنادى عنها وأتنحى ناحية الطاق ، أعتصر رأسى بيدى ...

اقتربت منى « نفرت » فى خطا حذرة ، وهى تهمس :

أتظنني أسأت فى شيء ؟ ...

فهمهمت ، وأنا أحاول أن أزيغ ببصرى :

ليتك لم تصدقيني القول ! ...

— لماذا ؟ لماذا ؟ ...

— لا أدرى يا « نفرت » ... أخشى أن أكون فى قولى هاذيا ! ...

— لا ... أنت لا تهذى ... إنك لا تقول إلا حقا ... ولا تنطق إلا صوابا ... كلامك كله هداية وإرشاد ... إن كنت ترانى قد أخطأت فى شيء ، فلا تكتم عنى ... ارسم لى الطريق الذى يجب أن أسلكه ... إنى حواريتك ... إنى ابنتك ... أكان فى تصرفى ما يريب ؟

— لقد شببت عن الطوق يا « نفرت » ... وأنت فى غنية عن النصح ... افعلى ما يوحيه إليك ضميرك ... عليك نفسك ...

فتعلقت بصدرى قائلة :

لا ... لا تتركنى وشأنى ... إذا شئت ألا ألقى « بنكاو » فمرنى أطع ...

واندفعت تبكى ، وهى متشبثة بعنقى ، أحر بكاء ... وإذا قواها تخور ، وإذا هى تتهاوى ، فانكببت عليها أحملها ، وسرت بها وئيداً إلى حجرتها ، ثم مددتها على فراشها ، وأنا أقول :

كان اليوم عصيباً عليك يا « نفرت » ... اهدئى ونامى ...

فقالت مطبقة الجفنين :

أما زلت ناقما منى ؟ ...

— ثق أنى لا أنقم منك أبداً ... إن قلبى عامر بالرضا عنك على الدوام ...

فلاحت على وجهها ابتسامة ، وتحركت شفتاها بكلمات لا تبين ...

واتخذت مكانى عن كثب منها ، أتملاها وهى فى ثيابها الأنيقة ، تستقبل طائف الأحلام ...

لبثت عيناى لا تفارقان محيّاها ، وكان ضوء القنديل الشحيح يضفى عليها سحرا خلابا ...

ودانيتها ، أربّت خصلات شعرها ...

ثم انحنيت على وجنتها أطبع قبلة حارة مديدة ...

وما فعلت حتى أدبرت عنها ، وأنا ألم شعثى ، قاصداً حجرتى ، بيد أنى لم أطق فيها مكثا ، فخرجت فزعا إلى الفضاء ، أضرب فى الليل الداجى على غير هـــدى ، ومشاعرى تتلهب ، وأفكارى تصطرع ، وكل تصوراتى مهوشة متداخلة ، كأن بى وافد الحمّى !...

١٣

ما أسوأها ليلة أمضيت أكثرها هائماً على وجهى ، وأويت فى أخرياتها إلى فراش لم أظفر فيه بيقظة هادئة ولا بنوم مريح ...

كان طيف « نفرت » يحاصرنى ، أراها فى ثوبها الأبيض الناصع ، تتلألأ عليها حليها الزاهية ... لم تعد « نفرت » تلك الطفلة الغريرة ذات المظهر الساذج الخشن ، فهى تتجلى أمام ناظرى اليوم حسناء فاتنة ...

ما لى أجدها تثير فى أعماق أحاسيس كامنة ، توجس نفسى خيفة منها ؟...

مـــاذا ؟...

أما زالت تقبع فى قرارة كيانى البشرى جذور من روح الشر ، وأنا الذى لم أدخر وسعاً فى تهذيب وترويض ، حتى حسبت أنى قد برئت من كل أثر للشر ، ومن كل سلطان له على ؟...

لكأنى بهذه الأحاسيس البغيضة تتأهب لانبعاث جديد !

لا ، لن أسمح لها بأن تنمو نموها الذميم ...

وما بال هذا الشبح الأسود ، يتربص « بنفرت » يريد اختطافها ، يريد أن يستأثر بها بين ذراعيه أبداً ؟ أيحسب أنى تاركها له ينالها فى سهولة ويسر ؟...

ما كنت أقدر أنى أمقته كل هـذا المقت ، وأنا الذى وقفت حياتى على التبشير بالمحبة والسماحة والمصافاة ...

أمخطىء « بنكاو » حقاً ؟...

أشرير هو حقاً ؟...

أم ... أنا المخطىء الشرير ؟...

وتهاطلت علىّ التصـــورات والأفـكار تستغرقنى ، ودارت حولى الأطياف شتى ، بين مشرق أنيس وآخر موحش كريه ...

وصبحاً نهضت من فراشى موطنا عزمى على أمر ...

إنه قرار حاسم لا رجعة فيه ...

تجهزت ببعض الزاد ، وحملت عكازتى ، متجها إلى حجرة « نفرت » ، فلم أجدها ، فتوخيت باب الخـروج ، فرأيتها تتخايل فى الضوء البهىّ ، تامة الزينة والزخرف ...

إنها ترتقب مقدمه ...

هى فى انتظاره حتما ...

وشعرت بقلبى ينصهر بين أضالعى ، وعلت سحنتى جهامة واكتئاب ...

وأحست « نفرت » بى ، فأسرعت خطاها نحوى ، وقالت :

ما أبهج اليوم وما أطيبه ! ...

فقلت فى صوت أجش ، ونظراتى زائغة :

نعم ، إنه ليوم طيب بهيج ، جدير أن يستمتع به الشباب ! ...

فغاضت ابتسامتها ، وهى تتدانى منى تتأملنى :

ما بك يا أبى ؟ يبدو عليك الكد ... ألم تنعم بنوم مريح ؟

— لقد جفانى النوم يا « نفرت » ! ...

وأمسكت عن القول ، وأنا أرمى بنظرى فى الأفق البعيد ، ثم استأنفت قائلا :

أصغى إلىّ يا « نفرت » ، إنى فى حاجة إلى رياضة روحية ألزم بها نفسى ...

— ماذا فى الأمر ؟ أوضح !...

— سأغيب عنك مدة لا أعرف مقدارها ... أشعر بأنى فى حاجة إلى فترة أحاسب فيها وجدانى ، وأحتكم إلى ضميرى ... سأزاول امتحانا نفسياً جديداً ...

— فيم المحاسبة والاحتكام ؟... وفيم الامتحان ؟ ...

— أقولها لك صادقاً يا « نفرت » ... أخشى على نفسى من نفسى ... يبدو أن نزعة الشر ما زالت قابعة فى أغوار كيانى ، وأن الحياة قد دبت فى هذه النزعة من جديد ...

— كيف تتوهم أن فيك نزعة شر ، وأنت قد بلغته من الطهر والصفاء مرتبة تدنو من مراتب الآلهة ؟

فابتسمت فى تحسر ، وأجبت بقولى :

إن من تحسبينه قد دنا من مراتب الآلهة ، يحس اليوم أن الأرض تميد تحت قدميه ميدا ! ...

— لاتجحد فضلك يامن غدوت إلها معبودا ... وماينبغى للآلهة أن تخشى طوارق الأحداث !...

ووقفت برهة صامتة ، وهى تنظر قبالتها نظراً حالما ، وتكلمت فى صوت متنغم :

يا له من مشهد رائع عظيم ... ذلك الذى شهدته فى المعبد أمس ...

— أذهبت إلى المعبد ؟ ...

فواصلت حديثها غير معنية بماسألتها فيه ، وهى على حالها حالمة النظرات :

كان الجمع زاخراً ، وكلهم من شباب القوم ، فى لبوس العيد ، والمعبد بأعمدته المتناثرة ، وحوائطه

الموشية بالنقوش ، يعبق بالبخور الزكى ، والكهنة فى طيالسهم يرتلون الأناشيد ، يسايرها إيقاع موسيقى أخاذ ، وأصوات الجموع تردد المقاطع فى تهلل ، وعيوننا متعلقـــة بتمثال الإله العظيم « بتاح » ... كنا ننشد :

أى « بتاح » ...
يا حافظ الأرض والسماء ...
يا واهب الخير والنمـاء ...
أنت مســـدى النعمة ...
أنت مولى الرحمـــة ...
إنك الكلمة الحاسمة ...
إنك الحقيقة الدائمة ...
تعـاليت وتقـــدست ...

إلهنا « بتاح » ...

والتفتت إلىّ ، وابتسامة الغبطة تتألق على محيّاها ، وهى تقول :

كنت أصلى وأرتل الأناشيد مع « بنكاو » ، وأنا أتمثلك حيالى ، قائماً فى تمثال الإله « بتاح » ...

كنت أنشد لك ، أنشد للإله الأعظم الذى أراه نصب عينى ...

فهمهمت فى نبرة حزن :

وهل أنا إله يا « نفرت » ؟ ...

— ولماذا تأبى أن تكونه ، والناس كلهم يرونك إلهاً ، وأنا منذ نشأت لم أرك إلا ذلك الإله المرموق !

فهمست ناكس الرأس :

لست إلهاً يا « نفرت » ... أنا امرؤ خاطىء ...

— حاشا لك أن تكون خاطئاً !...

— كنت أحسب أنى كما تزعمين ، ولكن تجلت لى الحقيقة عند التجربة ... عرفت أنى خاطىء لا ريب !

— كيف ذاك ؟...

— ما أفقرنى إلى ابتهال إلى الإله الحق ، نور الأزل ، أستلهم منه طمأنينة اليقين ... الشكوك تراودنى ، والحيرة تنوشنى ، ولا أتبين وجه الطريق ! ...

ووقفت أمامها أتوسمها ملياً ، كأنى أبغى أن أتزود منها بأكبر قدر مستطاع ، قبل أن يفصل بيننا الوداع ...

وهمست :

لقد بدأت رؤياك فى الواحة الخضراء تتحقق يا نفرتيتى ... هذا تأويل الرؤيا ... المدينة العظيمة ذات الأبواب السبعة توشك أن تبتلعك ،

وأسوارها توشك أن تنقض عليك ، فتسلبنى إياك ...

إنى مرتحل ...

— إلى أين ؟ ...

— لا أدرى ... وداعا يا « نفرت » ... وداعا ربما كان بعده لقاء !...

وضربت بعكازتى أديم الأرض ، ودفعت بخطاى صوب المنطقة الخالية ... على حين لمحت شبح « بنكاو » قادما من المدينة ذات الظلال الخضراء ، فأمعنت فى السير ، تحيط بي وقدة الحر ، وأحس تحت قدمى صلابة الصخر !...